الموسيقى
فلسفتها وتأثيرها

بقلم حافظ لطف الله اليازجي

تحرص « الآداب » في تأدية رسالتها من أجل خلق الجيل العربي الواعي ، على ان توجّه القراء في مختلف مظاهر النشاط الفكري .

وهي إذ تقدّم اليوم هـذا البحث العلمي في الموسيقى انما ترمي الى محاولة تثقيف فني . ومعلوم ان القراء العرب اجمالاً مفتقرون الى الثقافة الفنية التي ينبغي ان تتوفر لكل انسان يرغب في ان ينعم بجميع امكانيات حياته البشرية .

وهذا البحث يعتبر مدخلاً ضرورياً لكل ثقافة فنية في ميدان الموسيقى .

بدأ الانسان في التعبير عن مشاعره وافكاره بالاصوات. ثم عبر عن معاني حياته بالحركات فأوجد الرسم والحفر، واعتُبر الانسان بعد ذلك عبقرياً باكتشافه طريقة التعبير الصوتي الذي يتضمن المفهوم المعنوي ، فظهرت اللغة . وحملت كل لغة حياة الانسان المعنوية والمادية وما زالت هكذا حتى اليوم.

غير ان الانسان الذي اخترع اللغـة كأداة للتعبير عن الاحساس ، وجد ان هذه المادة لا تحمل بمفرداتها حيوية المعاني المعنوية والنفسية ، لأنه ادرك ان ما يشعر به من الاحساس النفسي الباطني لا يستطيع نقله حياً للغة مع المحافظة على حيويته المعنوية النفسية في الألفـاظ اللغوية المادية .

وهكذا ظهر ان اللغة ليست الاداة الكاملة للتعريف بالحضارة الانسانية ، بالانسان على الضبط ، لأن المعنويات الحيـة بحيوية ذاتية في النفس من جهة لا تحيا مطلقاً في مادة اللغـة من جهة اخرى ، وهي ان عاشت فانها لا تحمل باللغة حيويتها التي وهبتها اياها الذات ، مما يبرهن على ان اللغة تعبير مادي لا يصلح للمثل المعنوية ولا للحياة النفسية صلاحاً معقولاً . الا ان هـذا العجز الظاهر بين اللغة والذات او بين المادي والمعنوي ، بدأ بالزوال تدريجياً حينما بدأت اللغة تتغير من مادة الى معنى يحمل المادية حية في المثل المعنوية بظهور الموسيقى التي تعبر عن الحس النفسي تعبير اللغـة عن الحس المادي . ولذا نقول ان اللغة حياة المادة معبرةً للانسان عن حياته المادية ، اما الموسيقى فمُثُلُ الانسان المعنوية حيةً في احساس مسجل يعيـد بالصوت المادي حيوية المعنويات الذاتية . فالموسيقى اذن تعبير عام عن الحياة الذاتية المعنوية بحيوية لا وجود لها في اللغة التي تستمد الحياة من الذات.

الموسيقى بين المعنى واللذة

غير ان الموسيقى ، التي هي تجسيم للحياة في احساس صوتي معبر عن حياة الذات ، اعلى مستوى من مادة اللغة البسيطة الدانية المستويات من الحس والعقل الانساني . ومن هنـا نشأ عدم فهم الموسيقى كمعنى بل كلذة ، مع ان الموسيقى في الأصل احساس اصيل ذاتي عبّر عنه الانسان فأراد معناه دون ان يقصد الاحساس بالذات . فالموسيقي لا يريد اللذة كما يريد المعنى . اما الانسان العادي –غير الموسيقي– فيريد اللذة قبل المعنى ، ولذا نقول ان الموسيقى معنى الاحساس الذاتي في التعبير الفني . ومن هذا القول نستنتج ان الموسيقى معنى المعنويات الذاتية حيةً في فنون التعبير الأقرب للفهم الأنساني والأدراك حاملةً لهذا وبه اللذة . واما الموسيقيّ فهو الذي يحيا مصوراً للحياة ومعبراً عن صورها المعنوية بمعناه الفني الذي يحمل اللذة الذاتية . ولهذا السبب الذي جعل الموسيقى بطبيعتها معنى المعنويات نجدها صعبة الفهم العقلي ، سريعة الادراك باللذة الذاتية.

وهكذا نجد الموسيقى تحيا مع الفنان الموسيقي بجوهرهـا المقصود ومعانيها المعنوية . أما مع الانسان العادي فتحيا بلذتها الحسية لا بمعانيها المعنوية ، وهذا لا يحط من شأن الموسيقى ، بل من شأن الانسان المتأخر عن اللحاق والتفوق العقليين بالناحية المعنوية على الناحية الحسية في الفهم والانقياد خاصة في الفن الموسيقي . فلو جُرّد الانسان العادي من حسه بالموسيقى الذي به يدرك جمالها لما استطاع إعطاء الموسيقى القيمة أو المعنى او

اي إحساس بالعقل ، لأن مقياس الفن عنده الاحساس . أما الفنان ، الذي يحيا بالمعنى الموسيقي كمقياس لجمال الموسيقى ، وإن جرّد من الحس والالحاق بالموسيقى ، فان الموسيقى تبقى حية به ويبقى هو خالداً بحياته العقلية المبدعة للموسيقى غير الحسية . والموسيقيّ الفاقد الحس لا يفقد الموسيقى لأنه يحييها من جديد بعقله ، وينتجها لنا لنحيا بها في إحساسنا . ومع هذا علينا أن نعلم أن ما يربط الموسيقى بالحي هو الاحساس ولذا فالموسيقى في أدنى درجاتها تتطلب الحس الذي يبني اللذة .

ولما كان الحيوان يتمتع بالحس كالانسان كانت الموسيقى فن حياةٍ عامة يشترك بلذتها الانسان والحيوان وينتفع منها الاثنان ، غير ان الباني للموسيقى هو الذي يعقلها بمعانيها ، فيحيا ملتذاً بالمعنى المنتقل له بالحس فيه . ومن هنا نعلم ان الفنان الموسيقي إذا عدم الحس بالموسيقى التي ينتجها ، لا تفنى لذته الموسيقية بما ينتج ولا يحس به ، لأنه تعوّد بطبيعته فهم الموسيقى التي ينتجها بمعناها . فاذا كان المعنى سامياً التذ به ، وشعر بلذته في إحساسه ، والعكس بالعكس . ومن هنا نشأت لذة الفنان الموسيقي العديم الحس بما يبدع عقلياً من موسيقى حسية معنوية ، لأنه يدرك معنى ما يبدعه بالعقل فيلتذ بما يدرك . أما نحن فنلتذ بما نسمع لأن السمع عند الأنسان العادي يعني وجود اللذة والموسيقى حيةً فيه ؛ اما عند الموسيقي فلا يعني السمع سوى اداة بدائية للموسيقى تساعد على نقلها لا على بنائها وتكوينها ، لقيام العقل الذاتي المعنوي بها لا الاحساس المادي ؛ وهذا هو أساس الموسيقى لأنها تعتمد على وجود استعداد عقلي معنوي معبر بحيوية الذات عن مفاهيمها ومشاعرها . وهكذا نعلم ان الموسيقي المحروم من السمع او الحس لا يستطيع نقل الموسيقى الغيرية او التلذذ بها ، أما موسيقاه الذاتية فتبقى حية ما دام عاقلاً لمعاني حياته المعنوية .

ما الموسيقى ؟

ليس ما تقدم سوى عرض بسيط للموسيقى والموسيقيّ والانسان العادي ، اما الموسيقى بذاتها كفنّ فما هي ؟ إنها صوت معبر موحٍ يحمل الحياة بمعانيها وأحاسيسها من حي الى حي ، فهي فن تعبير وإيحاء من الحياة الانسانية واليها . أما الأصوات فلا يمكن عدها موسيقى إن لم تعبر عن الحياة وتوح بما تحمله من عبرة او عبر لكل فرد حي يتمتع بالحس والادراك والعقل . ومن هنا نجد ان الفن الموسيقي أرقى من الصوت العادي ، فالصوت دلالة مطلقة على الحياة ولكنه لا يعني الحياة بالذات ، إذ كثيرة هي الأحياء التي لا أصوات لها ، فالصوت لا يتسع للحياة بينما الحياة تتسع له ولغيره . أما الموسيقى فتجمع بين سعة الحياة للصوت وغيره من أحداثها وموجوداتها ، وبين تعبير الصوت عن الحياة التي انبثق عنها واحتوته بوجودها ليعبر عن وجوده ووجودها أيضاً . وعلى هذا تكون الموسيقى فناً يجمع بين الحياة بصورها الطبيعية وبين طبائع موجوداتها وطبيعة العالَم الذي نشأت فيه هذه الحياة بصوت او أصوات معبرة عن تلك الصور والطبائع والطبيعة .

وكثيراً ما لا تجمع الموسيقى بين الحياة بصورها المتسعة وبين الصوت بحدوده الضيقة التعبير ، فلا تحمل للذات صورة مدركة او احساساً معيناً ، وعندئذ تخرج كل قطعة فنية كهذه عن حيز الموسيقى الى حيز آخر لا يرتبط بقيد او شرط ، فتدعى القطعة لحناً ولا يجوز ان تدعى موسيقى . فاللحن هو الصوت ، اما الموسيقى فالصوت الحي المعبر عن الحياة والحياة الحية المعبر عنها بالصوت .

فاللحن في الموسيقى اذن هو مادتها . اما الموسيقى فتحيا بغير اللحن المادي وذلك بما تحمله للذات من احساس مصوّر او معبر عنه بقطعها الفنية الموجهة . وإذن فالموسيقى صورة اللحن التي تصورها القطع الفنية للذات الانسانية ، كما اننا من هنا نعلم ان الصورة في الموسيقى روح الموسيقى ، اما اللحن فمادتها بحيث لا قيمة لمادة الموسيقى حين لا نستطيع فهم الموسيقى بروحها او بصورها ، فالموسيقى التي لا يتصورها الأنسان لأنه لا يستطيع تصورها ليست بالموسيقى وان حملت اللحن . ولهذ فالموسيقى كالحياة الأنسانية او كالأنسان بالذات ، ان لم يحمل الروح فلا قيمة للمادة التي منها يتكون الجسد .

الموسيقى والطبيعة

الموسيقى اذن حياةٌ ذاتُ مادةٍ تحيا باللحن وروح تحيي مادة اللحن بالمعنى والصورة ، وهذه الحياة المصورة بالمعنى المعبرة باللحن تعيش مع الأنسان لأنها من الأنسان واليه حسب الظاهر . وهذا خطأ — لأن الموسيقى في الطبيعة اسبق وجوداً من الموسيقى الانسانية ، إذ ليس افضل من اصوات الطبيعة تصويراً للطبيعة والعالم بالذات . فالانسان يقلد حين يصور الطبيعة بالموسيقى ، موسيقى الطبيعة واصواتها ، ويستنبط الموسيقى من العالم والطبيعة ثم ينظمها لتنسجم بالتالي مع ذاته بحيث تحمل

الموسيقى من جهة صورة الطبيعة وحياتها الصوتية بألحانها الطبيعية، ومن جهة اخرى تحمل طبيعة الذات الأنسانية بأحساسها وكافة ميزاتها فتنقل الموسيقى بذلك صورة الطبيعة او صورة العالم الخارجي من جهة، ثم تنقل صورة طبيعتنا او صورة الذات الانسانية بميزاتها من جهة اخرى، فتصبح فناً معبراً عن حقيقة الوجود الانساني وعن طبيعة هذا الوجود كوجود بالذات في حياة ذاتية باطنية لا يدركها سوى الانسان الذي يحيا بالعالم، متأثراً بطبيعة العالم. ومن هنا يحق لنا ان نقول ان الموسيقى سجل حياة الذات منذ كان الوجود الذاتي في العالم. غير ان هذا السجل ينقل الحياة حية بمعناها المعنوي، فينقل تأثيرها وتأثرها من كل سلف الى كل خلف دون ان يضيع من ميزاتها الحيوية او يزيد عليها شيئاً، بعكس سجلات الانسان التي لا تحمل الحياة بمعناها ومعنوياتها، بل تنقل وصفاً يوحي من بعيد للذات ايحاء يشبه تلك الحياة وعلى الذات ان تقرّب باجتهادها بين ما يتضمنه السجل وبين ما تضمنته الحياة، فما نسجله لا نسجل به الحياة بل ننقل به وصفاً عنها، فالحياة لا تسجل بالسجل الانساني. اما في الموسيقى فلا سجل حقيقي للحياة بالعالم والذات الا فيها، ولذا نقول ان الموسيقى تاريخ حي يحمل الحياة الذاتية في حياة العالم الطبيعية، فيجمع بين الانسان والحي وان كان حيواناً وبين العالم كطبيعة وواقع.

ولما كان العالم ولا يزال بواقعه، كواقع الانسان، متطوراً، كانت الموسيقى المعبرة عن الحياة في العالم والانسان متطورة هي الاخرى. اذن فالتطور الموسيقى ليس وليد التطور الذاتي المطلق، بل وليد التجديد الطبيعي في العالم والتطور المقابل له في الذات؛ وعليه تجمع الموسيقى كفنّ بين الانسان بكامل حياته من جهة، وبين العالم بكامل طبيعته من جهة لتعبر عن الحياة بكاملها في الوجود بكامله. ومن هنا نعلم ان الموسيقى اوسع فن في العالم. غير ان هذا الاتساع لا يعني ان الموسيقى اعظم فن لان الفن الاعظم بين الفنون، مجموعة الفنون، اذ لا تمام للمادة والمعنى في فن واحد بل بمجموعة الفنون تبنى الحياة بحقيقتها وواقعها.

« ان الامم التي لا توجه الموسيقى توجيها يناسب النشء، تفسد المعنويات النفسية، وتقيمها على أساس فاسد لا شعوري في النشء؛ إذ بالموسيقى تطبع القوى الحساسة العصبية والمراكز العصبية الهامة انطباعاً فعالاً متناسباً مع نوع الموسيقى في توجيه الاندفاعات الذاتية والميول النفسية والرغبات، وبصورة عامة في توجيه الحياة المعنوية الانسانية. »

اختلاف الموسيقى بين الامم

والموسيقى كفنّ تختلف بين امة واخرى وبين ذات وذات فما سبب هذا الاختلاف؟

ان عدم تطابق حياة ذات انسانية واستحالة تطابقها مع حياة ذات انسانية اخرى، يولد اختلاف التعبير الموسيقي بين فرد وآخر وامة واخرى، كما ان اختلاف الطبيعة التي منها تستمد الموسيقى الصورة والوحي يولد تبايناً في الاتجاه الموسيقي بين طبيعة بلد وطبيعة آخر.

فالنزعة الموسيقية هي اذن اساس التباين الموسيقي وهي لا تولد من العدم بل من الحياة التي لا تطابق فيها بين ذات واخرى ولا انسجام فيها بين طبيعة بلد وطبيعة آخر، مما يدل على ان الموسيقى من العالم الطبيعي ومن العالم الذاتي في النشأة والتكوين، وبالتطور والنزعات تبنى ميزات الامم. فالنزعة الموسيقية والتباين الموسيقي ضرورة لازمة لاظهار ميزات كل امة وذات وطبيعة مستقلة بشخصيتها عن الاخرى.

قلنا ان الموسيقى كفنّ ضرورية التباين لضرورة التعبير عن مختلف اجزاء الذات الانسانية والطبيعة في العالم. ونضيف الآن ان كل تطور يطرأ على طرف من الذات او العالم سبب غير مباشر لتطور الموسيقى، لأن كل مفهوم واحساس جديد يطرأ على الحياة الذاتية الانسانية يغير من اتجاه موسيقاها وينحرف بها الى ما يلائمه من التعبير لتمثيل واقع الحياة الذاتية. وهكذا حينما تتغير طبيعة بلد او عالم او يغير الانسان طبيعة عالمه بالانتقال تتأثر الموسيقى مع الحياة بطابع جديد فتنحرف للتعبير عن طبيعة جديدة هي طبيعة العالم الجديد. ولكن هل الانحراف الموسيقي ضروري مفيد؟

إن الانحراف الموسيقي سبب نشوء تجديد فني دائم، فاذا كانت الموسيقى رتيبة تجري على نمط واحد مُلت وهجرت، ولذا فالتجديد الناشىء عن الانحراف الموسيقي سبب ميلاد نزعات جديدة مجددة في الموسيقى مولدة لحياة فنية موسيقية متناسبة مع التطور الانساني الحسي والكلي ومع التطور العالمي الطبيعي. ومن هنا ومما سبق نجد الموسيقى تنحرف وتتطور وتتجدد ولذا قلنا انها حياة معبرة عن وجودنا، لها مادة باللحن

وروح بالصورة . وكما ننحرف بحياتنا ونتطور ونتجدد هكذا تنحرف الموسيقى وتتطور وتتجدد. ولذا قيل ان الموسيقى حياة متطورة مع الحياة وفن متسع معبر موحى من الحياة وموحٍ للحياة.

الموسيقى الموجهة

وقد يقال ان الموسيقى فن لا علم فيه ، والحق ان الموسيقى فن علمي له الأثر الأكبر حين يوجه توجيهاً صحيحاً في النفس الانسانية ، لأنه يحيي الطاقة ويجدد النشاط ويثير مختلف القوى الفطرية والمكتسبة والشخصية ، وينبه عامة القوى النفسية ويعيدها للعمل السليم بنشاط أرفع مستوىً من مستوى النشاط السابق وقدرة ذاتية أشد من الأولى وأعنف .

فالموسيقى الموجهة فن علمي قادر على الانتاج الفعال المفيد لكل واقع ذاتي غير طبيعي، إذ ليس هنالك كالمعنويات تأثير في الشذوذ المعنوي . أما الماديات فوسائط لايجاد اعتدال معنوي طبيعي قلما يوجد او يعود بتأثير مادي مطلق ، فالحياة النفسية معنوية، والمعنويات فيها ضرورية لتقدمها وتأخرها كالماديات بالنسبة للجسد . فالأمم التي لا توجه الموسيقى توجيهاً يناسب النشء تفسد المعنويات النفسية وتقيمها على اساس فاسد لا شعوري في النشء إذ بالموسيقى تطبع القوى الحساسة العصبية والمراكز العصبية الهامة انطباعاً فعالاً متناسباً مع نوع الموسيقى في توجيه الاندفاعات الذاتية والميول النفسية والرغبات، وبصورة عامة في توجيه الحياة المعنوية الانسانية . ومن هنا تنشأ الشعوب المهملة التوجيه الفني عابثة بالقيم المعنوية عبثاً يظهر بالسلوك الطبيعي في افراد تلك الشعوب كأن التبدل الخلقي يجري مع التبدل والانحراف الفني، لأن الفن بصورة عامة يترك انطباعاً مثيراً لنزعته في الذات، وبصورة لا شعورية تنبثق تلك النزعات من الانطباعات الذاتية في اللاشعور للشعور فتبحث عنها الذات بصورة آلية . فلو وجّه الفن لاحياء معنويات القوة او المثل الانسانية او لأي هدف مقصود لوجد النشء الموجّه بطبيعة ذاته ذلك التوجيه طبيعة ذاتية من طباعه الخاصة فيربى الجيل بالعادة والتكرار على ما يريد الانسان الموجه بالفن والعمل الصحيح ولذا نقول : إن الفن الموسيقي الموجه اول خطوة سريعة التأثير النفسي في العالم وفي الانسان بصورة خاصة لغرس ذلك الاتجاه المقصود الذي تحمله الموسيقى وتعبر عنه كطبيعة في الذات الانسانية بالاعتياد على ذلك التوجيه الفني وبتكرار العودة اليه .

تأثير الموسيقى المادّي

غير ان ما ذكرناه من نتائج الموسيقى في تكوين النفسية وإنشاء الأجيال لا يعد بحثاً علمياً للتأثير الموسيقي الفني الا على المعنويات ، لأن للموسيقى تأثيراً مادياً فعالاً في الجسد الانساني وهذا ما يسلط الفن الموسيقي على الحياة المادية اي الجسدية تسليطاً مباشراً له نتائجه الفعالة في جميع أجهزة الجسد وقواه المادية المطلقة . وقد يظن الانسان ان تأثير الموسيقى المادي في الجسد ينحصر في الناحية الحسية او في الناحية العصبية . والحق ان للموسيقى الشأن الأول في تغيير وتكييف وظائف الأجهزة والأعضاء .

ذلك ان للموسيقى في الجهاز العصبي فعالية خاصة منبهة في البدء لجميع الأعصاب الحسية لنشرها تنبيهاً عاماً في الجسد حين تبدأ بالظهور للحس الانساني . غير ان الحس الذي يستجيب للموسيقى ، عن طريق اللذة او الألم او الاحساس بصورة عامة بنوع جديد من الشعور لم يكن قبل وجودها في الجسد — لا يهم مطلقاً ، لأنه الجزء السطحي المباشر من تأثير الموسيقى في الجهاز العصبي ، إذ بعد مدة وجيزة يزول التنبيه الموسيقي للأعصاب الحسية وبزواله يصبح الانسان في حالة انسجام تام مع الموسيقى التي تبدأ بالتأثير على الأعصاب المحركة فترفع او تخفض مستوى التوتر ، فيظهر الهيجان بارتفاع مستوى هذا التوتر العصبي ويظهر الخمول والسكون بانخفاضه ، وتستجيب العضلات لارتفاعات وانخفاضات التوترات العصبية بصورة آلية ويظهر الاندفاع الحركي العضلي في الأطراف جرياً مع الموسيقى لا شعورياً ، وتنشط فعالية الاجهزة الباقية عند ارتفاع مستوى التوتر فيزداد نسبياً بصورة سليمة، النبض وانطلاق الدم وحركة الدورة الدموية ، وترتفع الحرارة جزئياً . اما عندما ينخفض مستوى التوتر فتسكن مع الموسيقى حركات العضلات وتخمل فيبطىء النبض والتنفس والدوران وتهدأ حركات الاطراف بحيث نجد في هذه الفترة من الانسجام مع الموسيقى انسجام الجسد بوظائفه واعضائه المادية مع التأثير الموسيقي او الجو الموسيقي المرافق للتأثرات العضوية الجسدية .

اذن تؤثر الموسيقى مباشرة في الأعصاب الحسية بالتنبيه الآني الزائل بعد فترة ، ثم تؤثر في الاعصاب المحركة بالانسجام الذي يدوم حتى انتهاء ظهور اللحن الموسيقي في نهاية القطعة الفنية ، واخيراً تبدأ بالسيطرة على الناحية العضوية وعلى الوظيفة

اقباس من تراثنا المغمور

مجلس شراب ..

لابي محمد بن الحسين الشبل (المتوفى عام ٤٧٤ ﻫ)

— ١ —

ومبشّرٍ باليـــاسرية * معشراً
صرعى كؤوس الراح والريحان
قتل النفوس عبوقُها فأعادهـــا
ذكرُ الصبوح تدب في الابدان
وكأنما أرخى غـلائل سُندسٍ
أو جرّ أذيالاً عـــلى العقيان
متقـــلد بعقيقتـــين موشّح
بالدرّتـــين مقرّط الآذان
صفقَ الجناحَ على الجناح مغرداً
قبـــل الأذان منددأ بإذان
وحدا الظلامَ مع الكواكب سحرة
بمثـــالث من صوته ومثـــاني

* الياسرية علم على متنزه. والمقصود بالمبشر هنا ديك الصباح.

يا غافلين دنا الصبوح فبـــادروا
اللذات قبل عوائق الأزمـان
تدنو السقاةُ الى السقاة كأنمـــا
يمشون تحت مقابس النـــيران

— ٢ —

بتنا ندير كؤوساً من مدامعنـا
ونجعل البثّ للاسرار ريحـــانا
يضمنا وجـدنا والصَّوْن ينشرنا
لفّ الشّمالِ على الأغصان أغصانا
ونجعل الكبد الحرّى على الكبد
الحرى ونبدي من الاشواق ألوانا
وللصّبا عبثٌ بالثوب تجـــذبه
عنا كموقظـــةٍ بالرفق وسنانا

الخاصة بكل عضو مـادي بالنسبة لارتفاع أو انخفاض مستوى التوتر في المراكز العصبية كالدمـــاغ الذي تنشط او تسكن وظائفه الهامة ، وكالنخاع الشوكي الذي تزيد الموسيقى في حـالة ارتفـــاع مستوى التوتر في سيطرته على الحركات الآلية « الميكانيكية » للطرفين السفليين وعلى الحركات الميكانيكية العامة في الاجهزة والاعضاء والغدد التي تحملها الموسيقى في حالة انخفاض مستوى التوتر . مما يدل على ان للموسيقى سيطرة عامة على القوى العصبية الآلية الميكانيكية والعاقلة الفكرية في الجسد ، كما ان لها تأثيراً هاماً في العقد العصبية المحركة والعضلات .

وهكذا تسيطر الموسيقى على العضلات المتحركة بسيطرتها على الاعصاب المحركة والحسية، وتؤثر في الدورة الدموية والتنفسية فتزيد في شدتها وسرعتها الحركية بارتفـاع مستوى التوتر بشكل يصبح معه التنفس اسرع واعمق مما كان عليه ، او تخمل الدوران الدموي والتنفسي بانخفاض مستوى التوتر فيبطيء التنفس ويضيق عما كان عليه قبل التأثر بالموسيقى . وهكذا تسيطر الموسيقى على الدوران والتنفس سيطرة تامة قريبة من اللاشعور .

ولكن تأثير الموسيقى لا يقتصر على ما تقدم فهي تؤثر ايضاً في جهاز الهضم ونشاط وظائفه وعدم نشاطها . فالموسيقى تزيـد الشهية أو تضعفها كما تزيد أو تضعف الهضم والامتصاص جريـاً مع انخفاض أو ارتفاع مستوى التوتر . وهكذا يستطيع الانسان بطبيعته دون تعليم وارشاد اختيـــار النغم الموسيقي والقطع الموسيقية الموافقة له عند تناول الطعام أو قبله أو بعده مع شعوره

التام ان ما يزعجه منها في وقت من هذه الاوقات هو نفس ما يجب عليه أن يسمعه في وقت آخر من الحياة .

ثم إن للموسيقى تأثيراً على الجهاز الغدّي لان من الغدد ما تستجيب لارتفاع مستوى التوتر حين لا تستجيب اخرى له بل لانخفاضه. فالغدد الدمعية تستجيب مثلاً لانخفاض مستوى التوتر بازدياد السائل الدمعي في العين على النغم الموسيقي الساكن القريب من الحزين ، بينما يجف الحلق نظراً لوقف إفراز الغدد اللعابية والعكس بالعكس .

فالموسيقى تؤثر في الوظائف الغدّية العامة والخاصة كل التأثير . الا ان هذا التأثير يجري ، في اغلب الاحيان تحت الشعور ، بين الشعور واللاشعور ، في حالة انسجام تام بين المؤثر الموسيقي والمتأثر الحي. ومع هذا نقول ان تأثير الموسيقى في تغيير او تحوير وظائف الاعضاء والاجهزة الجسدية انما هو تغيير وتحوير جزئي لا يخرج بالجسد من حد السلامة الى المرض أو من حد المرض الى السلامة ، بل ينشيء حداً معتدلاً من الراحة المنشطة الفعالة في تحوير الكيان المادي من حالة الاضطراب السيء التأثير في النفس الى حالة الاعتدال الآني الحسن التأثير النفسي .وقد يسأل سائل ما تأثير الموسيقى في المركبات المادية او في كيمياء الجسد ؟

فنجيب ان الموسيقى التي تؤثر في جميع الوظائف الجسدية تؤثر بصورة غير مباشرة في جميع نتائج الوظائف أي في جميع المركبات التي يصنعها الجسد او يتلقاها او يلقيها . وهذه النتيجة اللازمة آنية وجزئية ولكنها فعالة لانها تؤدي دوماً الى ايجاد إحياء خاص للوظائف المهملة اللاشعورية في الجسد فتثيرها بحملها على العمل لتخليص الجسم بذلك من كثير من السموم والفضلات الضارة واسترجاع الراحة الناتجة عن ذلك ولو بصورة آنية غير دائمة مدى الحياة .

تأثير الموسيقى في النفس

ثم قد يسأل اخر ما تأثير الموسيقى في النفس ؟

فنجيب ان الموسيقى تؤثر مباشرة على ما نحس به في الشعور فتستجيب لها اللذة والرغبة والعاطفة والهوى والهيجان والتخيل والذكريات بصورة مجتمعة دفعة واحدة ، وبشكل اسرع من استجابة الجسد لها . ومن الطبيعي ان الانسان ان لم يلتذ بالموسيقى نفسياً لا يتأثر بها جسدياً بل يهجرها ويمتعض منها ، لان النفس اسرع استجابة وتأثراً بالمعنويات عامة وبالموسيقى خاصة ، التي هي احدى المعنويات النفسية ، من الجسد الذي هو ابطأ تأثراً بالموسيقى من النفس لاستجابة الجسد للمادي اكثر من استجابته للمعنوي .

ومن هنا نستنتج ان الموسيقى تؤثر بسرعة متناسبة مع طبيعة جوهرها المؤالفة او المخالفة لطبيعة جوهر المتأثر من مادي او معنوي او روحي في الشعور ، اي في اليقظة . اما في اللاشعور ، في النوم ، فقلما تعود الموسيقى لذكرى الانسان بعد الاستيقاظ لانها نادرة الوجود في اللاشعور نظراً لقلة اهتمام الانسان بها في الشعور وبتركيزها خاصة في مشاعره ، وما دام الانسان يحسب الموسيقى لذة او للذة فلا يقيم لها وزناً وإن كانت ملذة إلا للذتها وهذا يعني انه لا يركزها فهماً ويهضمها في الوعي كما ينطلق معها في اللذة بالحس .

ان الانسان يشارك الموسيقى بالحس لا بالاستيعاب والتركيز في الشعور . ومن الطبيعي ان ما لا نركزه جيداً في مشاعرنا وفي مجرى حياتنا يكون ضعيف الوجود دوماً في ما يستند الى هذا الوعي والشعور اي في اللاشعور . فالموسيقى التي نلمحها بالاحلام في اللاشعور إنما هي بقية ما ركزه الانسان لتلذذه به في الحس واليقظة اكثر من إدراكه له بالعقل والتفكير. ومن الطبيعي نتيجة لذلك ان تكون الموسيقى جميلة لذيذة في اللاشعور بالاحلام وقليلة نادرة بها غير معدومة .

ومما تقدم نجد الانسان العادي يفهم الموسيقى باللذة دون تفتيش عن إرادة الموسيقي الفنان من اللذة الفنية والنفسية المنبعثة من القطع الموسيقية .

وعلى هذا يحيا الموسيقي الفنان باللذة المعنوية من المعاني الغنائية او الموسيقية ، بينما يحيا غير الفنان ، الانسان العادي ، من اللذة او من المشاعر المولدة من تلك المعاني المفقودة بين سلسلة احساسنا باللذة وبين سلسلة بحثنا عن سببها ، مع انسياب اللحن وتتابع الانتاج الفني الموسيقي .

ومن هنا نستنتج ان الانسان ما زال يلاحق الحياة بمفهوم الحس ويبرر مفاهيمه الحسية بالمفاهيم العقلية ، مع علمه انه بالوهم يحس بحقيقة لا وجود لها بالواقع ويدرك ان إحساسه فاشل لا يصلح مقياساً للحياة . ولكن بالرغم من هذا وذاك فقد أضاع الانسان كثيراً من المعنويات الفنية والواقعية نظراً لتعلقه المطلق بالماديات والمحسوسات الواقعية والفنية .

حافظ لطف الله اليازجي